بالحُبّ

كان الشابى فنانًا موهوبًا ، وإنسانًا صادقًا ، ظهر فى مرحلة تحتاج إلى الثورة والتغيير الشامل فى ميدان الفكر والمجتمع والشعور ، فتبنى هذه الثورة وتبنى الدعوة إلى التغيير العميق ، ولقى بسبب ذلك آلامًا كثيرة ، زادت من آلامه الطبيعية التى كان يعانيها بسبب مرضه الخطير الذى قضى عليه وهو فى الخامسة والعشرين من عمره .

يقول شوبنهور : (أمام تجربة الألم فى الحياة لا يوجد سوى طريقين للتخلص منها : إما الزهد والاندماج فى حالة من التصوف العميق ، وإما الفن : أن تغرق أحزانك فى الفن) هذا ما يقوله شوبنهور، فطريق الخلاص هو أن تتصوف أو أن ترتفع بهذه الأحزان عن طريق الفن الذى يساعد الإنسان إلى الوصول للقوة المعنوية الكاملة ، والإحساس الشفاف الذى لا يتأثر بمصائب الدنيا ، وإنما ينظر إليها من أعلى ، كأنه متصوف هندى يدرب نفسه على العذاب فى تجارب اختيارية مستمرة .

وقد وقع الشابى فى (تجربة الألم) حتى قرارها البعيد ، واختار الطريق الثانى ، اختار الفن الذى عصر فيه قلبه الغض ، وكان مأواه الروحى الدائم كلما صارعه الألم هو أن يكتب شعرًا ، أو يكتب أغنيات حب لشعره ، والشابى من أكثر الشعراء العرب المعاصرين تمجيدًا للشعر ، ففى ديوانه ثمانى قصائد عن الشعر هى : شعرى – يا شعر – أغنية الشاعر – قلت للشعر أحلام شاعر

– فكرة الفنان – ألحانى السكرى – قلب شاعر .

وفى هذه القصيدة كلها يعبر عن ارتباطه بالشعر ، فهو قوة عميقة ترفعه إلى ما هو أعلى من الألم ، وتشعل لهب الحياة فى قلب تحاصره الهموم ... أى أنه لم يلجأ للعزلة والتصوف وإنما لجأ بإيمان وحب إلى الفن .

وفى شهر سبتمبر ١٩٣٤ وصل المرض بهذا العابد للفن وللطبيعة والحب ، إلى حد خطير فذهب إلى تونس عاصمة بلاده ، وكان الثلج يوضع على صدره لتخفيف آلامه ، ولكن القلب الكبير سكت بينما كان الشابى يرقد فى المستشفى بحثًا عن أمل واه ضعيف فى الشفاء ... وفى ٩ أكتوبر سنة ١٩٣٤ مات الشابى فى هدوء ووداعة ، بعد أن احتمل من آلام المرض الكثير الكثير .

كان موتًا وديعًا برغم الألم ، وكل الذين شهدوه فى لحظاته الأخيرة أكبروا فيه قدرته على الاحتمال ، واستمراره فى الابتسام بقدر ما استطاع .

أخيرًا سكت ذلك الفنان الذى عاش على الحب ، وللحب ، فكان ثائرًا مجددًا ولكن بدون حقد أو كراهية ... لقد قدم الكثير رغم الشقاء الذى كان يحاصره ويضنيه ويدفعه إلى أن يقول :

والشقى الشقى من كان مثلى فى حساسيتى ورقة نفسى

ولكن حياته وكفاحه قد سجلا انتصارًا للحب الذى كان يملأ قلبه ويدفعه إلى العمل المستمر من أجل كرامة الشعب وكرامة المرأة وكرامة الفن ... لقد حقق بذلك ما قاله زميله فى الاستشهاد من أجل المعانى الإنسانية النبيلة (انطون تشيكوف) :

(إن كان فى وسعك أن تحب ، ففى وسعك أن تفعل أى شىء) .

ولقد أحب الشابى حبًا عميقًا راقيًا ... لقد أحب شعبه وبلاده وأحب الطبيعة والحياة والفن .

ولذلك فقد استطاع أن يفعل الكثير الذى كان بحاجة إلى أضعاف عمره القصير لكى يتم ويكتمل .

ولكنها قوة الحب ، فى فنان كان (عاشقًا) حتى فى أقصى لحظات تمرده وثورته ... فنان لم يعرف طعم الحقد ولم يشعر بمرارة العواطف السوداء . بل كان دائمًا يحلم بمجتمع مثالى ضائع لم يتحقق فى الواقع ، كان يحلم (بالفردوس المفقود) وهذا (الفردوس) هو الجمال والقوة والخير والحب ولقد ظل طيلة حياته يبحث عن هذا الفردوس ويغنى له ، ويهرب على جناح الخيال إليه فيلقاه تارة فى مشاعر الطفولة النقية البريئة ، ويلقاه تارة أخرى فى تناسق الطبيعة واكتمال عناصر الحياة فيها ، وبقدر ما كان يحب (فردوسه) فقد كان يشعر بالحزن الدائم لأنه لا يجد لهذا الفردوس أثرًا فى حياة الواقع ، ولذلك ظهرت نغمة الأسى فى شعره ، تلك النغمة التى كانت نتيجة طبيعية لفقدان (الفردوس) الذى كان يتمناه الشابى ويتخيله . ففى هذا (الفردوس) كان الشابى يتمنى أن يجد الإنسان الحى بكل ما فى كلمة الحياة من معنى ... حياة (الفعل) وحياة (الفكر) و (الشعور) ... وكان يتمنى فى (فردوسه) أن يجد الحب والصداقة والشعور بالمسئولية والطموح إلى المستقبل كعناصر أساسية تقوم عليها الحياة .

ولكنه لم يجد شيئًا من فردوسه ، ومات دون أن يرى بعينه شيئًا من هذا (الفردوس المفقود) فى واقع الحياة ، ومع ذلك فهو لم ينس يومًا فى سخطه ورضاه ، أن الفردوس) سوف يتحقق فى النهاية على الأرض وفى واقع المجتمع ... ولو كان ثمن ذلك هو أحزانه العميقة وأحزان أمثاله من المكافحين النبلاء من أجل فردوس إنسانى كامل .